عتق

قررنا أن نخطو أهم خطوة في نضالنا ..

العودة .. إنه القرار الذي أجمع عليه كل معارضي القط .. فشرعنا في تنفيذه .

عدنا إلى أرض الوطن ..

حملتنا تلك الوحوش البرتقالية في جوفها .. كانت وسيلتنا للعودة كما كانت سبيلنا للنجاة من قبل .. كان الوطن ينتظر لحظة الانقضاض هذه .

فوجئ الزعيم بانتفاضة القطط المقهورة .. نسى تماماً الحكمة التي تناقلتها الأمم وضربت بها المثل مستخدمة القطط مثالاً .. فهي أفضل من يمثل الحالة وأصدق من يعبر عنها :

" إذا حاصرت القط فاترك له فسحة وإلا فإنك تذكره بمخالبه "..

تذكرت القطط المحاصرة والمحصورة تحت سلطة الأرعن أن لها سبعة أرواح تعيش كلها في مذلة .. فقررت التضحية ببعضها من أجل سلامة الباقي .. فما حاجة قط لسبعة أرواح كاملة وهو ذليل؟.

لم يصمد أعوان الزعيم الأعور كثيراً .. تداعت أركان عرشه من هول ضربات القطط المظلومة المكلومة .. انفض حوله الأنصار .. بعضهم خوفاً على الأرواح .. بعضهم طمعاً في الأرباح .. سارت الرياح بما اشتهت سفن القطط .. حاول الاستعانة بجيراننا من الكلاب والجرابيع والثعالب للوقوف معه وإنقاذه مقابل مزايا هامة يمنحها لهم من حصة القطط في الوطن .

صاحت القطة الشابة :

- يا له من خائن .

- لم يفلح تدبيره أمام رغبة القطط في الانعتاق من قيوده الكثيرة البغيضة القاسية والمهينة .

كانت فاتورة كسر القيود باهظة .. نزفنا دماءً غزيرة وخسرنا أنفسًا عزيزة .. حاولنا أن ننهج معه نهجا مسالماً .. وأن نحدث تغييراً في الوطن بما يخدم كل أبناء الوطن ..

لكن أبى الأعور إلا أن يركب رأسه ويفرض رأيه .. كرر على الأسماع حكمته التي ساس بها القطط كل ذلك الزمن .. بل ورآها وحدها الأنجع والأسلم والأحكم :

" المخلب الأقوى هو الأصلح " .

فكان لابد مما ليس من الوقوع فيه بد ..

صاح القط الفتيّ :

- يا له من متعجرف .

- وقف الأرعن في طريق التغيير بكامل قوته وجبروته .. سقط خلق كثير .. كانت الكلاب تتفرج في شماتة .. الجرابيع والفئران اعتبروا ذلك عيداً .. في النهاية كانت الكلمة لأهل الحق على أهل الجور والباطل .

سقط الأرعن مضرجاً في دمائه .. نالته يد خصومه .. طالما سفكها .. في نفس المكان الذي سفح فيه دم ذلك القط الذي افتتح به عصره الدموي ..

هتفت القطة الشابة في فرح :

- الجزاء من جنس العمل .. هكذا تقول الحكمة .

❖❖❖

كان على القطط الثلاثة مغادرة البرميل .. توجهوا من جديد إلى جدارهم .. اختفت السحب من لوحة السماء .. عززت الشمس من قوتها ونشاطها .. افتتحت الشابة الحديث هذه المرة :

- الحمد لله .. آن للقطط أن تنعم بوطنها .

زفر الكهل .. حرك ذيله بتكاسل .. بحث بعينيه عن ذبابتهم المزعجة .. استأنف حديثه بعد أن تأكد من خلو المكان من زنينها :

" تراقصت القطط حول جثته .. احتفلت كثيرا بانتهاء عصر الخوف والرهبة والفزع .. أكلت وشربت بشهوة وشراهة .. أقامت أفراحا كبيرة لا مثيل لها .. امتلأت سماء الوطن بالفرح الذي غاب عنها كثيرا .. حُق لأمة القطط أن تفرح .. فقد استعادت حريتها بمخالبها وإرادتها .. بعد أيام قلائل من الفرح العارم ..

طارت خمرة الفرح من العقول .. آبت القطط إلى رشدها .. اكتشفنا شيئا لم نحسب له أي حساب .. اصطدمنا بواقع جديد أفسد علينا فرحتنا .. أجبرنا أن نعيد حساباتنا في كل شيء .

❖❖❖

لم تعد القطط كما تركناها في أرض الوطن ..

تجربتها المريرة مع الزعيم الأرعن جعلها تنظر لكرسي الزعامة نظرة مختلفة .. لم يعد شعار القطط القديم صالحا :

" أكلة هنية وعيشة رضية " .

اكتشفنا أن هناك الكثير من الفرق ترغب في قيادة القطط .. كان من السهل اكتشاف مدى اتساع هوة بين هذه الفرق .. كان الهدف في البداية واضحا ومشتركاً ..

كنا نحلم بوطن يجمعنا .. ننعم بخيراته ونعيش في احضانه بسلام وأمان واطمئنان .. ننهض به وينهض بنا ..

لكن ...

ماءت القطة الشابة في غضب واستنكار :

- لكن ماذا ؟ ... ما الذي جرى للقطط ؟

صار المستقبل غامضاً مجهول المعالم ..

كان كل فريق يخطط بطريقته الخاصة ..

المشكلة أن تخطيطه كان لنفسه فقط .. أخذت تتسع تلك الهوة يوماً بعد يوم ..

صارت وادياً عميقاً .

لم يكن هذا كل شيء ..

صارت الزعامة مطلب الجميع .. وهنا الكارثة !!!

هتف القط الشاب في غضب :

- بعد كل تلك التضحيات .. لم لا يتنازلون من أجل الوطن ؟

تنهد الكهل العجوز في حرقة قبل أن يسترسل في سرد تاريخ موجع لوطن ضائع :

- تطلعت الرؤوس كلها للبس التاج .. وامتدت الأيادي كلها لتلقف الصولجان .. حتى اشتهرت طرفة في تلك الأيام تقول :

" إن المتطلعين لزعامة القطط يفوق عدد القطط" ..

لم تكن الحرية فقط ما استرجعته القطط ..

استعادت كذلك فوضاها التي كانت سبباً لما آلت إليه حالها .. استرجعت مخالبها الضائعة في عهد الزعيم ..

صارت المخالب موجهة لصدور القطط .. بدل أن تشهر في وجه الأعداء .

❖❖❖

استعادت القطط حريتها المفقودة ..

لكنها فشلت في الحفاظ على القيم .. تاهت القيم في صحراء المنفعة .. ذابت أمام لهب الطمع .. تغيرت مفاهيم الأشياء ومعانيها .. احتفظت القطط بالمسميات فقط .

ارتُكبت المجازر .. مجازر فضيعة .

قاطعته القطة الشابة :

- مجازر ؟ .
- نعم ..
- لماذا ؟
- الانتقام .. تذكرت القطط مآسيها في عهد الأرعن .. ونسيت حُلمها وحِلمها .. عندما يفقد القط حِلمه يتحول لوحش لا يمكن ردعه .. سعى كل قط لينتقم لنفسه .. فاختلط الحابل بالنابل ..
- يا لبؤس القطط .

- تساقطت القطط تباعاً .. بات الوطن ساحة قتال بين القطط .. بعد أن كان حُلماً كبيراً .. صار قبراً عميقاً مظلماً .. ضاق الوطن بما رحب .. امتد الصراع ليشمل الجيران ..

تساءل القط الفتيّ :

- ما علاقة الجيران بالقطط ؟

- اختلطت الأوراق .. تدخل الجيران لم يكن بغرض الإصلاح كما اعتقدت القطط .. بل كانوا يزيدون نار الفتنة وقوداً فتزداد اشتعالاً وإحراقاً .. ليخلو لهم الوطن ويتقاسموا نعيمه وحدهم بعد أن تفنى القطط صاحبة اكتشاف المكان وأول النازلين في حماه.

أضاف الكهل في أسى :

- اشتعل حب الانتقام والقتل والثأر بين الجميع .. لم يخضع أحد لأحد .. كل يرى نفسه أحق بالوطن وخيراته ..

فشلنا في إيقاف القطط وإعادتها لصوابها .. جرفها سيل الانتقام للمزيد من الانتقام .. سيطرت كل مجموعة من القطط على جزء يسير من الوطن ..

نسى الجميع أن الوطن يسع الجميع .

لكن لات حين مندم ..

جثث القتلى .. أطراف المصابين .. متناثرة في كل مكان .. صار الكلب حليفاً والفأر لطيفا والقط وحده عدو القط ..

رددت القطة الشابة جملتها الأثيرة بحزن وحرقة :

- يا لمأساة القطط !

صمت الكهل .. كان الحزن يعتصر قلبه الكهل .. حاول إخفاء دمعة حسرة تحاول النزول .. استجمع قواه ليضيف بصوتٍ متهدج :

- غادرت قطتي الوطن .. كنت بالكاد أقنعتها بالعودة معي إلى الوطن لنعمل معاً على نهضته .. كانت تحلم مثلي بمستقبل زاهر لقططها الصغيرة .. غادرتنا بعد أن اكتشفت استحالة تحقق حلمها في المدى القريب .. أخذت قططنا الصغيرة معها ..

غادر آخرون مثلها هرباً من الانتقام والموت .. قالت كلمتها الأخيرة الموجعة :

- كيف تريدني أن أعيش في وطن ترابه مغطى بجثث ساكنيه ؟ .

ذهبت إلى حيث أمنها وأمن أطفالها .. لم نلتقِ بعدها أبدا .

تنهد الكهل وزفر قبل أن يضيف :

زاد عقوق الأبناء على وطنهم .. طال أنينه ووجعه .. لكن أبناء الوطن لا يسمعون .. أخذتهم شهوة القتل والانتقام كل مأخذ .

حذرتهم من مغبة ما يصنعون بالوطن .. كنت أرى ما لا يرون .. رأيت وطننا يضيع من بين أيدينا .. وقفنا عاجزين عن فعل ينقذه

من براثن الأنانية .. لكن القطط استمرت في غيها .. لم تسمع لكل النداءات ولا الاستغاثات .. أصمت آذانها عن سماع صوت كهولها وعن التماس حكمة حكمائها .. حتى نبوءة ذلك العجوز .. قالها ذات ليلة .. لم يأبه لها أحد :

- " ستندمون على وطن ضيعتموه بأيديكم قريباً " .

روائح الموت أزكمت الأنوف .. ضاق الآخرون ذرعا بعبث القطط .. فكان لابد من وضع حد لذلك .. عجزت القطط عن إيقاف نزيف الموت فحدث ما لم يحسب له احدٌ حساب .

ذات صباح استيقظنا على كارثة الكوارث .

❖❖❖

توقف عن سرده ..

من بعيد لاح طيف قادم .. كان مسرعاً في خطواته كعادة الشباب .. بل متأنياً كعادة الكهول .

انتبه له الفتيّ .. فأومأ للفتاة .. تفرست بدورها في الشبح القادم .. اقترب من المكان .. أسرع الفتى نحو القادم .. ابتسمت الفتاة .. تساءل الكهل عن هوية القادم ؟ :

- إنها أمه .

ارتجف الكهل .. أخذته المفاجأة .. وقف بصعوبة لاستقبال القادمة .. بالكاد تمالك نفسه .. كادت أرواحه السبعة المنهكة تفارقه .

أسندته الفتاة .

وصلت منهكة .. يتصبب منها عرق الإجهاد .. التقطت أنفاسها .. .. أسندها الفتى .. تواجه الكهلان .. وجهاً لوجه .

عم المكان صمت ..

لم يأبه أحد من الأربعة للشمس المحرقة .. حرارة الموقف كانت أبرد من سلطان الشمس .. زوجان من العيون كانتا تتبادل حواراً صامتاً .. ضجيج كلماته الصامتة عبرت عنه المآقي بدموع جارية ..

زوجان آخران من العيون كانت تتابع المشهد .

تحاضنا الكهلان طويلاً .. باحت الأحضان بكوامن أخفتها لسنوات طويلة ..

تبادل الشابان إشارات الاستفهام ؟

انفصل الحضنان ..

جلسوا جميعاً إلى ظل الجدار من جديد .. الكهل كان السباق بالكلام :

- لم تغيرك السنون .
- أنت كذلك لا تزال بحيوية الشباب .

ابتسم الشابان خفية عن الكهلين العاشقين .. لكن العجوز كان فطناً كعادة كهول القطط .. فتبرع بإزالة سحب الشك وغيوم الريبة عن سماء ذهنهما فقال :

- إنها هي .. تلك الحبيبة .

صاح القطان فرحاً :

- أوه رائع .. يا له من لقاء و يالها من مصادفة .

- أخبرني قطي الأليف أنه التقاك .. حرك في جوفي الرماد المتراكم .. نفخ فيه .. أشعل فيه الروح .. كبرت نار الوطن داخلي .. أشعلتني شوقاً له .. لم أخبره بتفاصيل علاقتنا السابقة .. حدثني بكل ما أخبرته به عن الوطن وما حدث فيه .

قال الفتى مبتسماً لأمه العاشق العجوز :

- هو أيضاً لم يخبرنا عن علاقته بك .. كل ما فعله أنه أشاد بك .. ووصفك بالصرامة والحزم .

أضاف الكهل مقاطعا :

- والحكمة أيضا هئ هئ هئ .

- أوه .. كان ذلك في الماضي .هئ هئ هئ ..

- أماه .. لم تخبريني برغبتك بالقدوم للوطن !.

- الشوق ما حملني لتكبد المشقة .. شعرتُ أن أنفاساً لي عليّ أن أتنفسها في بقايا الوطن .. أسرعتُ ملبية نداء الشوق .. ظهور هذا

العجوز في المكان زاد من نيران شوقي .. جعلها حريقاً لا يقاوم .. جئتُ لأطفئ لظى هذه النيران ولو بنظرة ....

هل أكملت لهم السيرة ؟ ..

- ليس بعد يا أماه .. نحن ننتظر أن يتكرم علينا ويكمل باقي السيرة .. كم هي أليمة ومفزعة .

بحسرة شديدة قالت القطة الشابة :

- مسكينة القطط .. لم يهنأ لها عيش ولا بال .

سألت العحوز الكهل :

- أين وصلت في سرد تلك السيرة ؟
- لم يبق إلا الحديث عن ذلك الصباح الرهيب .
- دعني أكمل عنك هذا الفصل الأليم .